المحاضرة الرابعة:

النقد البنيوي

"إنّ بنية النص هي جملة العلاقات التي تؤسس، مجتمعة، النص ذاته. وترد في شكل كلّ متشابك. وبالتالي فإنّ دراسة البنية تعني، ضمنيا، الوقوف عند نظام الحركات (الذوات وطرائق حضورها وتفاعلها مع محيطها) واستقراء العلاقات التي تتأسس داخل النص سواء بين الألفاظ أو الأشخاص، أو بين الصور وطرائق تأسيسها. وبإيجاز رصد حركة النّص وإيقاعه الدّاخلي."

عن إنسان: (محمود درويش)

وضعوا على فمه السلاسل
ربطوا يديه بصخرة الموتى،
وقالوا: أنت قاتل!
***
أخذوا طعامه والملابس والبيارق
ورموه في زنزانة الموتى،
وقالوا: أنت سارق!
طردوه من كل المرافئ
أخذوا حبيبته الصغيرة،
ثم قالوا أنت لاجئ!
***
يا دامي العينين والكفين!
إنّ اللّيل زائل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل!
نيرون مات، ولم تمت روما....
بعينيها تقاتل!
وحبوب سنبلة تجف

ستملأ الوادي سنابل!..

التحليل البنائي للخطاب الشعري:

تمثل قصيدة عن إنسان لـ**محمود درويش** الصراع الوجودي القائم بين الفلسطيني صاحب الأرض والكيان الصهيوني الوافد، فهذه القصيدة على صغر حجمها استطاع الشاعر من التعبير على حجم هذا الصراع ومعاناة الشعب الفلسطيني منه لعدم تكافؤ موازين القوى، فالكيان الصهيوني مدعوم من جميع الدول الغربية خاصة دول حلف الأطلسي، ويحتمي بأكبر الجيوش الغربية بينما الشعبي الفلسطيني فلا يملك إلاّ عزيمته ومساندة بعض الدول والشعوب التي لا تملك القوة الكافية للدفاع عن حق الفلسطينيين في أرضهم، لكن ما يجعل الفلسطيني متمسكا بأرضه هو ثقته بنصر الله تعالى، وامتداده البعيد في الأرض الذي لا يمكن لأيّ قوّة أن تقتلعه.

أخد الصراع بين الشعب الفلسطيني والكيان الصهيوني أوجهاً متعددة لكنها تصب في هدف واحد وهي إثبات أحقية الوجود، ومن مظاهر هذا الصراع:

- الصراع على الأرض.
- الصراع على الهوية.
- الصراع على الثقافة.
- الصراح على الحقيقة.

وظف الكيان الصهيوني مدعوما بالقوى الغربية، والقوى العربية المتخاذلة كلّ ترسانته الإعلامية المتواجدة في مختلف أنحاء العالم خاصة أوروبا وأمريكا، ليكسب تعاطف الشعوب ويُظهر للعالم أنّه صاحب الأرض، أمّا الشعب الفلسطيني فهو مجرد أقلية وافدة على أرض فلسطين. حاول أن يُغير اسم الوطن وجعله (إسرائيل) وحاول تغيير أسماء القرى والأحياء والشوارع، وتغيير معالم الأماكن وطمس مظهرها العربي الإسلامي، وحاول أيضا الاستيلاء على العادات والتقاليد والسطو على كلّ ما هو فلسطيني ونسيته إليه.

يسعى الكيان الصهيوني إلى محو التاريخ الفلسطيني الذي يعود إلى آلاف السنين ليغرس بدله كذبة أوجدتها بريطانيا بوعد **بلفور**، واحتضنتها الولايات المتحدة.

1. نظام الحركات: يمكن أن نلاحظ في هذه القصيدة حركتين رئيستين، تمثلان صورتان مختلفتان عن وضع الفلسطيني اتجاه قوى الاحتلال والطغيان، كالآتي:

الحركة الأولى:

يظهر الفلسطيني في الحركة الأولى خاضعا خضوعا تاما وبصفة سلبية شبه تامة؛ حيث لا تظهر من جهته أيّ مقاومة تذكر، فيقول الشاعر: (**ربطوا يديه، أخذوا طعامه، طردود**....)، تجلت هذه الحركة في المقطع الأوّل من القصيدة، فمنذ إعلان الكيان الصهيوني سنة 1948، بمباركة غربية، وهو يعمل على قتل وتهجير الفلسطينيين وأخذ ممتلكاتهم، ومن هول الصدمة وضعف الفلسطيني ما كان على هذا الأخير إلاّ أن يهاجر، وقد عرف الفلسطيني نوعان من الهجرة، الأولى داخلية وكانت داخل الأراضي الفلسطينية و أخرى خارجية وكانت إلى دول أخرى، وقد ترك الفلسطيني خلفه كلّ ما يملك وأصبح لاجئا (**قالو: أنت لاجئ**).

تُعبر الحركة الأولى للقصيدة عن معانات الشعب الفلسطيني مع الكيان الصهيوني الذي زرعه الاحتلال البريطاني وتبنته الامبريالية الغربية؛ حيث كانت الخطة الغربية هي إحلال شعب مكان شعب ودولة مكان دولة، ليضمن الغرب لأنفسهم موطئ قدم وسط الأمّة الإسلامية والعربية، وليتحقق الهدف كان لا بد من وضع خطة لإفراغ فلسطين من أهلها ونقل اليهود من أصقاع العالم إلى فلسطين.

عبر **محمود درويش** عن هذه القضية بدقائقها وحيثياتها، وما ارتبط بها من معانات الفلسطينيين، حيث يقول:

وضعوا على فمه السلاسل
ربطوا يديه بصخرة الموتى،
وقالوا: أنت قاتل!

في هذه الحركة تعبير عن القمع (**وضعوا، ربطوا**...)، والسلب (**أخذوا طعامه، والملابس، والبيارق، أخذوا حبيبته الصغيرة**)، والقتل (**رموه في زنزانة الموتى**)، والتهجير (**طردوه من كلّ المرافئ**).

يظهر في هذه الحركة المحتل متحكما في كلّ شيء وهو صاحب المبادرة؛ فهو يأخذ ويسرق ويطرد...إلخ، وارتبطت كلّ هذه الأعمال العدائية التي قام بها الكيان الصهيوني بالكذب والخداع وتشويه الحقائق (**قالوا: أنت قاتل، قالوا: أنت سارق، قالوا: أنت لاجئ**)، فالصهاينة يقتلون الفلسطينيين من سبعين سنة دون توفق، ويتهمون الشعب الفلسطيني بالقتل، ويسرقون ممتلكات الفلسطينيين ويتهمونهم بالسرقة، ويأخذون وطنهم فلسطين ويدّعون أنّ لا وطن لهم، ويدعم كذبهم هذا وسائل الإعلام الغربية والأفلام والمسلسلات المدعومة من الصهيونية العالمية. فيظهر الجلاد في صورة الحمل الودود المسكين ويظهر الضحية في صورة المجرم، إنّه زمن التلاعب بالحقائق.

يدل تكرار كلمة **قالوا** على الافتراء المستمر الذي يمارسه الكيان الصهيوني، إلى درجة أنّه أقنع بعض الشعوب الغربية -من خلال شبكاته الإعلامية- أنّ فلسطين أرض لا يوجد فيها شعب وهي خالية من السكان وهم شعب بلا أرض، ويجب أن يعود إلى أرضه الموعودة -حسب زعمهم-

الحركة الثانية:

تتجلى الحركة الثانية في مُضي الفلسطيني قُدُماً -رغم التهجير والقتل والتعذيب- في مسعاه إلى استرجاعه أرضه، فهو الأصل الذي يبقى والثابت الذي لا يزول، وقد عرُف عن الفلسطيني تمسكه بأرضه وتضحيته لأجلها ودفاعه عن مُقدسات الأمة، وعبّر الشاعر عن بقاء الفلسطيني وثباته بقوله:

إنّ اللّيل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

ولا زرد السلاسل!

شبّه الشاعر الكيان الصهيوني باللّيل الذي يغشى الأمّة، فمهما طال وجوده هو حتماً إلى الزوال، ومع زواله ستزول كلّ معالمه وآثاره فلا يبقى شيء منه (**لا غرفة التوقيف باقية، ولا زرد السلاسل**)، ففي هذه الحركة تعبير عن الأمل ورغبة في البقاء.

يتغير في الحركة الثانية دور الفلسطيني السلبي ويصبح فاعلا، رغم أنّ الشاعر لا يقول ذلك مباشرة، فصور مثل: (**نيرون مات ولم تمت روما، حبوب سنبلة ستملأ الوادي سنابل**)، كلّها تدل على أنّ الفلسطيني باق في أرضه وثابت في المطالبة بحقه، فرغم أنّ جيل 48 هو جيل النكبة والضعف فإنّ الجيل الذي يليه سيكون جيل البعث والتحرير.

كلّ كلمة وكلّ عبارة في المقطع الثاني تدل على زوال الكيان الصهيوني واندثاره، وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله (**إنّ اللّيل زائل، لا غرفة التوفيق باقية، لا زرد السلاسل**).

2. التوجه الدرامي: يتشكل التوجه الدرامي من تشابك مجموعة من العناصر الفنية والدلالية التي تضفي على النص طابعا دراماً.

3. الزمن:

زمن الأفعال: يغلب على النص توظيف الزمن الماضي؛ حيث يُعبّر عن الأحداث المأساويّة التي عاشها الشعب الفلسطيني: (وضعوا، ربطوا، أخذوا، طردوه...إلخ).

زمن الأحداث: لم يشر الشاعر إلى الزمن الذي جرت فيه أحداث القصيدة، مع ذلك يمكن للقارئ أن يفهم أنّها تجري من لحظة نظم القصيدة إلى سبعين سنة من قبل، أيّ بعد الاحتلال البريطاني وبداية تهجير الفلسطينيين لإحلال الكيان الصهيوني محلّهم.

زمن أسطوري ملحمي: هو زمن خيالي غير واقعي مرتبط بأحداث الخطاب الشعري.

زمن ميقاتي متعارف: هو الزمن الفعلي والحقيقي.

الطابع الأسطوري: رغم أنّ القصيدة تعبّر عن أحداث من التاريخ المعاصر لفلسطين إلاّ أنّ المتلقي يجد نفسه في عالم أسطوريّ دون أن يتلقى أسطورة، ويظهر ذلك في المقطع الثاني من القصيدة، حيث وظف الشاعر مجموعة من الرموز التي جعلت القصيدة تكتسي طابعًا أسطوريًا.

يقول: إنّ اللّيل زائل

نيرون مات ولم تمت روما

وحبوب سنبلة تجف

ستملأ الوادي سنابل

كلّ هذه العبارات والمفردات التي وظفها توظيفا رمزيًا، جعلت من النصّ يكتسي طابعًا أسطوريًا.

العلاقة بين الزمنين:

4. الصورة الشعرية:

عُرف عن **محمود درويش** كفاءته العالية في تطويع الصورة الشعرية وإعادة تشكيلها بطرق مبتكرة تجعلها جذابة للمتلقي، ومُحمّلة بالدلالات، والمتتبع لمسيرته الشعرية يلحظ ثراء قصائده من ناحية الصور الشعريّة، والقصيدة التي بين أيديها خير مثال على ذلك، فرغم صغر حجمها إلاّ أنّها تفيض بالصور الشعريّة.

برزت الكناية في هذه القصيدة بشكل لافت؛ حيث جعلها الشاعر أداة مركزية في ربط أركان النص، من هذه الكنايات نذكر:

- وضعوا على فمه السلاسل: كناية عن المنع من التعبير.
- ربطوا يديه بصخرة الموتى: كناية عن القتل.
- رموه في زنزانة الموتى: كناية عن السجن حتى الموت.
- طردوه من كلّ المرافئ: كناية عن التهجير.
- يا دامي العينين والكفين: كناية عن كثرة البكاء والتعذيب.
- لا غرفة التوقيف باقية: كناية عن انتهاء السجن.
- لا زرد السلاسل: كناية عن انتهاء التعذيب.

كان للاستعارة التصريحية حضور فاعل في المقطع الثاني من القصيدة، كالآتي:

وظف الشاعر الاستعارة التصريحية في قوله: وحبوب سنبلة تجف، ستملأ الوادي سنابل!.، حيث شبه الشاعر الفلسطيني بالسنبلة، حذف المشبه الذي هو الفلسطيني وذكر المشبه به الذي هو السنبلة، ووجه الشبه بينهما أنّ السنبلة تعود إلى الحياة بعد أن تجف، كذلك يعود الفلسطيني إلى وطنه بعد التهجير.

تجف السنبلة فتسقط منها حبة في مكان ما، لكن هذه الحبة ستنبت سنبلة والسنبلة تُنبت سنابل أخرى، فيمتلأ المكان بالسنابل بعد أن كان خاليا، كذلك يعود الفلسطيني ويعود إخوانه وجيرانه إلى بيوتهم وأراضيهم يعمرونها من جديد.

استلهم الشاعر صورة الطاغية الإمبراطور الروماني المثير للجدل **نيرون**، الذي قتل شقيقه الأصغر وأمه ليستفرد بالحكم، وبعد ذلك أحرق روما؛ حيث تقول الروايات أنّه أضرم النار في مدينة روما فالتهمت ثلثي المدينة، واستمرت النيران لخمسة أيام، وكان هذا الاستلهام على شكل استعارة تصريحية، حيث شبه المحتل الصهيوني بالطاغية نيرون، حذف المشبه الذي هو الكيان الصهيوني وذكر المشبه به الذي هو نيرون، ووجه الشبه بينهما الزوال رغم الطغيان والتجبر.

ترتبط بالاستعارة السابقة استعارة تصريحية أخرى، حيث شبه الشاعر فلسطين بروما حذف المشبه الذي هو فلسطين، وذكر المشبه به الذي هو روما، ووجه الشبه بينهم البقاء فرغم أنّ **نيرون** أحرق روما إلاّ أنّها بقيت وهو زال، كذلك تبقى فلسطين ويزول الكيان الصهيوني رغم طغيانه وجبروته.

أسهمت الرموز بشكل لافت في بناء القصيدة، وجعل دلالاتها أكثر ظهور وثباتا، ومن الرموز التي وظف الشاعر نذكر:

- سنبلة: رمز النماء.
- الوادي: رمز التغيير.
- **نيرون**: رمز المغيان.
- مرافئ: رمز التهجير.
- سلاسل، زنزانة: رمز المعانات.